الحضارة الفينيقية
وتأثيرها في التمدن القديم

للشيخ بولس مسعد

صناعاتهم

لقد تفوّق الفينيقيون في الصناعة وأدركوا شأواً بعيداً فيها وبرعوا في كثير من فروعها ولاسيما في صناعة البرفير أو الارجوان المنسوب الى صور فهم اول من صبغوا بلونه واحرزوا شهرة واسعة فيه وقد اكتشفوا مادة صباغه في حيوانات بحرية من ذوات الصدف على شاطئ صور وصيداء ولونه احمر بنفسجي وكانوا يصبغون به الحرير والقطن والصوف الناعم ولا تزال آثار مصانعه حول صور ماثلة للعيان الى اليوم . غير ان اقتناء الملابس التي كانت تُصبغ به كان مقتصراً على الملوك والامراء في اشور وبابل وارام وفارس ومدين فلا يجسر العامة على استعمالها . واستخدموا في الصباغ الفوّه والحنّاء والدودة وكانوا ينسجون الصوف والكتان واشتهروا بتربية دود القز واستخراج خيوط الحرير منه ونسجها وصبغها وقد جاءوا بزره من بلاد فارس وكان لمنسوجاتهم الحريرية رواج لايبارى على رغم مصادرة قياصرة الرومان لها وحصرها في فئة قليلة من التجار الفينيقيين خوفاً على النسج الروماني من الكساد

وهم اول من اصطنع الزجاج ولا سيما الشفاف منه وأنشأوا معامل مهمة لصنعه ولا سيما في صيداء وصرفند وكانوا يستمدون في صنعه رملاً من نهر بالوس « نهر النعمان » . وفي متاحف اوربا كثير من مصنوعاتهم الزجاجية علاوة على ما وجد حديثاً من هذه المصنوعات في مدافن جبيل الملكية وفي المدافن التي عثر عليها بين صور وصيداء . ولهذه المصنوعات قيمة كبيرة عند علماء الآثار ليست لسواها من مصنوعات الرومان وغيرهم

وبرعوا في صنع الآنية الخزفية فكانت من اخص اصناف تجارتهم وكانت معاملها في سواحل فينيقية من ارواد الى صور وهم اول من نقل هذه الصناعة الى بلاد اليونان . وتفوقوا في صناعة الحفر والنقش وصبّ الذهب والفضة وفي كثير من المصنوعات المعدنية وامتازوا بالمصنوعات النحاسية فكانت متناهية في الزخرف ودقة الصنعة . وهم اول من صنع الاسلحة والكؤوس من نحاس بعد ان كانت تصنع من الحجر وقد وجدوا منها في قبرس وتوسكانا وفي متحفي اللوفر والفاتيكان شيء كثير منها . ووجدوا في طرطوس وعمريت قطعاً من

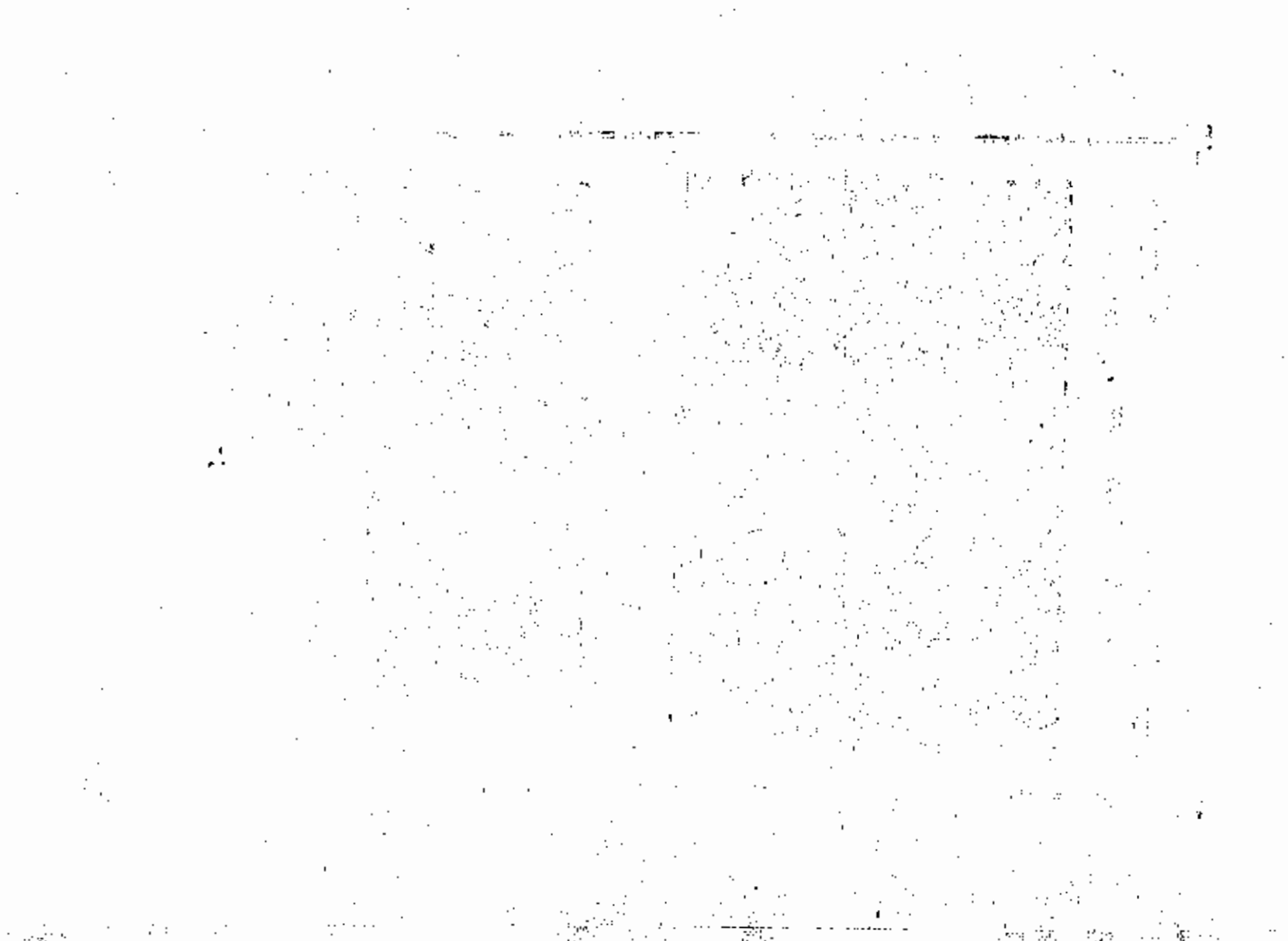

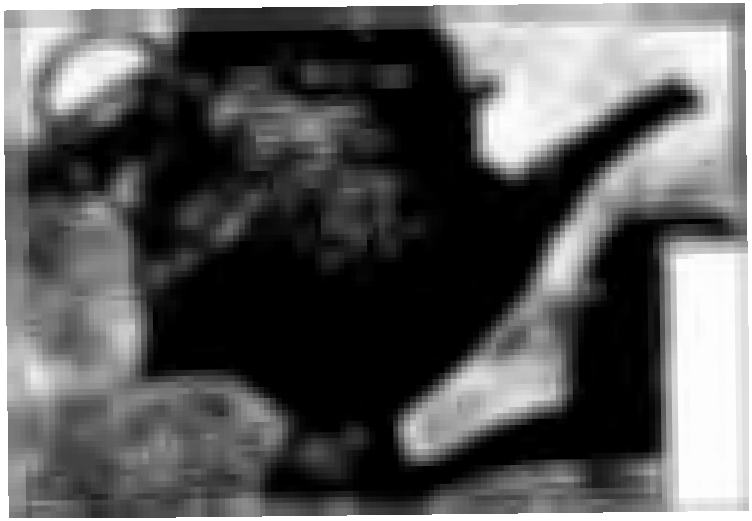

إبريق فضي عثر عليه في جبيل سنة ١٩٢٤

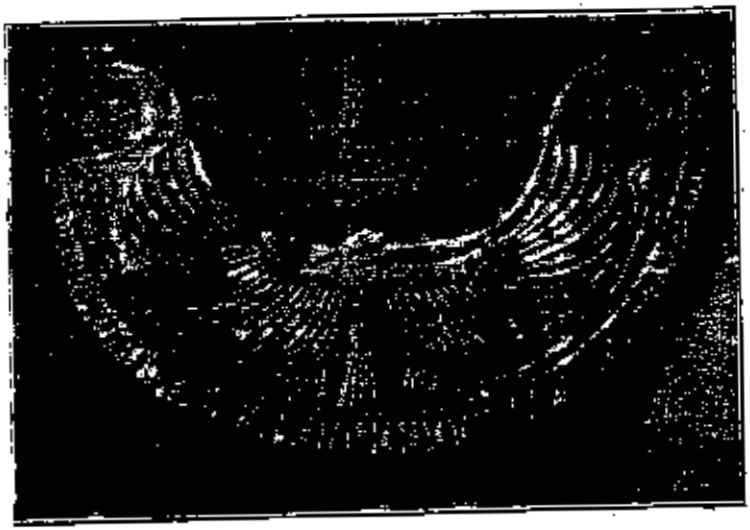

طوق من الذهب وجد في جبيل سنة ١٩٢٤

مقتطف إبريل ١٩٣٢ — امام صفحة ٤٣٣

الحلي مرصعة بالجواهر اجمع علماء الآثار على انها من صنعهم . وربما كانت المجوهرات التي عثروا عليها حديثاً في جبيل اقدم ما خلف الفينيقيون من التحف الأثرية والمصنوعات النفيسة الدالة على الثراء البعيد الذي بلغوا اليه في العصائر والقرون

وقد برعوا في صنع العاج وكانوا يجلبونه من الهند وافريقية الشمالية ووجد المنقبون من مصنوعاتهم العاجية شيئاً كثيراً في اطلال قصور الاشوريين . وبرعوا في زرع الكرم وفي استخراج الخمر وكان للخمر الفينيقي اللبناني شهرة كبيرة ولا سيما في رومية وفي بلاد اليونان. وامتازوا في تقديد الاسماك وفي صنع آلات الحراثة وهندسة البناء واعمال التحصين ومزيتهم في ذلك ضخامة الحجارة وحسن تنضيدها . وهم اول من عنى بتبليط الشوارع كما يستدل من تاريخ صور وقرطجنة . واخترعوا الفن واحرزوا في صناعتها نصيباً وفيراً من المجد والشهرة وهم اسبق الامم الى ركوب البحر فقد سخروه لارادتهم عابنوا من السفن وطافوا حول القارة الافريقية بامر فرعون نخو واستغرقت رحلتهم هذه ثلاث سنين وكان لهم سفن معدة لاختطاف العبيد والاماء وحملهم الى البلدان القاصية والاتجار بهم ولعلهم اول من تعاطى الاتجار بالنخاسة بين الامم القديمة

وقد دفعهم حب الكسب والاتجار الى حمل مصنوعاتهم ومتاجرهم الى اطراف المعمور ولئن كانت المصنوعات التي نقلوها الى الغرب مجردة من الزخرف خالية من التفنن والخيال ولم تظهر براعتهم فيها الا من الوجهة الوضعية العملية الا انها كانت متينة تتفق مع حاجة العصر الذي اخترعوها فيه

على ان ما احرزته فينيقية من الثروة الطائلة بتجارتها وصناعاتها كان سبباً في سقوطها وضعفها لانه افضى باهلها الى البذخ والاسراف وافسد آدابهم فانحط شأنهم وتطرق اليهم الاضمحلال وهاج غناهم من جهة اخرى مطامع الفاتحين من ملوك اشور وبابل وبلاد فارس فاكتسحوا بلادهم واخضعوها لسلطانهم ردحاً طويلاً من الدهر

مصادرهم

الحضارة الفينيقيين ترتقي الى عصور عريقة في القدم. فقد اتفق رأي العلماء على انهُ قبل ان يتألف الشعب السوري الفينيقي كانت الكتابة والصنائع معروفة في بلاد كنعان اي في زمن يرجع الى ما قبل عصر يشوع بوقت غير قصير . وكان لهم اسفار نفيسة تتناول شرائعهم وقواعد دينهم وقانون احكامهم وكانت هذه الاسفار مقدسة عندهم كما لو كانت منزلة لانهم كانوا يعدونها بمثابة وصايا الهية انزلها عليهم الاله « تاوت » او « طوت » . وكان لهم سجلات يدونون فيها تاريخ المملكة وحوادثها وكتب عملية في الزراعة والصنائع والحرف . واشهر

مؤلفيهم سنكنياتون البيروتي وقد عاش في العصر الذي عقب فتح الاسكندر وهو يقارب عصر موسى . وكان هذا المؤلف اول من دوّن القصص الوثنية وما كتبهُ العلماء في حضارة الفينيقيين وعلمهم القديم نقلاً عن فيلون الجبيلي واوساب ورفير والمشتي وفلاف يوسف انما هو مأخوذ عن العثرات التي عثر عليها اولئك المؤلفون من تاريخ فينيقية الذي انشأه سنكنياتون نفسه . ولهذا العالم كتاب مشهور ترجمه فيلون الجبيلي من الفينيقية الى اليونانية وقد وضعه في اصل العالم القديم ومنشأ الآلهة وجعله تقدمة لايبعل ملك بيروت او ملك الصيدونيين . وله كتاب آخر في تاريخ فينيقية وحضارتها وآداب لغتها فقد معظمه

واذا لم يكن الفينيقيون في اعتبار بعض العلماء مستنبطي الكتابة السامية التي هي مبدأ واصل حروف الهجاء لسائر اللغات فانهم بلا ريب اول من نشر هذه الكتابة في انحاء العالم . واليهم يُعزى نقل الصنائع والفنون والديانة البابلية والعلوم الرياضية وعلم الموازين والمقاييس وغيرها من العلوم التي نشأت في كلديا الى الشعوب الاخرى فهم اذن رسل المدنية القديمة لانهم كانوا في طليعة الشعوب الشرقية الحية التي كان لها شأنها في انشاء الرقي العقلي وتكوين الثورة الفكرية الاولى عند الغربيين . اما في الشرق فانهم يأتون في المرتبة الثانية بعد الكلدان والمصريين في التمدن القديم ويليهم الحثيون في سوريا وفي آسيا الصغرى ثم الفرس والصينيون والهنود وغيرهم . ومن العلماء من يضع الفينيقيين في الحضارة القديمة في المرتبة الاولى لان الامم الشرقية التي سبقتهم في المدنية اكتنزت علومها وصنائعها وجعلتها اسراراً لها فلم تستطع الشعوب المجاورة لها ان تتلقنها منها وتنتفع بها . واما فينيقية فان ابناءها كانوا رسل الحضارة البابلية او الكلدانية ودعاتها وقد نشروا العلوم والصنائع التي تلقنوها من كلديا في العالم اجمع فتناولتها الشعوب القديمة واستفادت بها فكانت اساساً لحضارة الشعوب التي جاءت بعدها . وقلما خلا بلد في العالم القديم من آثار تمدنهم . وحسب الفينيقيين ان تكون الملاحة وفن الكتابة من اخص مميزاتهم ليشغلوا المكانة الاولى بين الامم التي اسست الحضارة الشرقية ونشرت النور العرفان في العالم اجمع

شكل حكمهم

كان الحكم في فينيقية ديمقراطيًّا محضاً . فمع ان ملوكها كانوا يدعون انهم من سلالة الآلهة على مثال ملوك مصر وسواها من الممالك الشرقية فان السيادة الفعلية كانت للشعب في الشؤون العامة والمسائل الهامة . وكان للمملكة مجلس شيوخ مؤلف من مئة نائب يمثلون طبقة الاشراف . ولهذا المجلس رأي قاطع في كثير من الامور المهمة . وكان لكل بلد ملك مستقل يسود قومه ويحكمهم بمقتضى الشرائع الوطنية . وكان الملك عندهم وراثيًّا . غير ان العرش لم يكن مستطاعاً

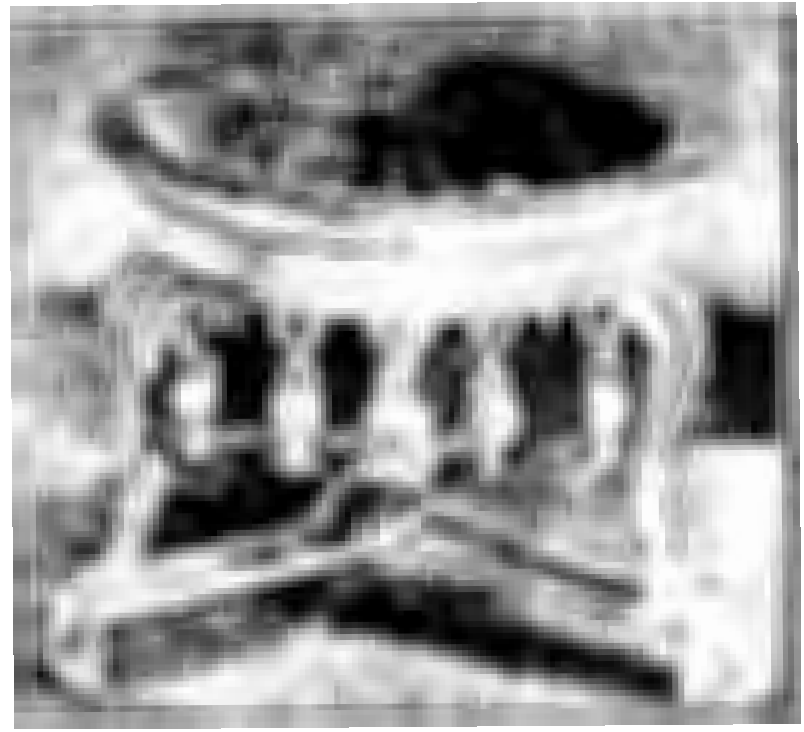

مائدة مثلثة الدعائم مصنوعة من البرونز وجدت في رأس الشمرا

لوح وجدفي رأس الشمرا مكتوب بلغة فينيقية عليها مسحة ارامية ويظن انهُ قطعة من ملحمة نظمها الشاعر الفينيقي سانكونياتون

امام صفحة ٤٣٥

الا لمن توافرت فيه شرائط الحكم وأجمعت الرعية على موالاته . واذا لم يكن من وارث فللامة ان تنتخب ملكها بمقتضى نظام محكم لا سبيل الى الخروج عنه فكان نظام الحكم عندهم ملكيًا مقيداً بمجالس عامة مؤلفة من الاشراف ومرتبطة بمشورة الكهنة والقضاة . وكانت نظامات جبيل دستوراً لحكومات فينيقية جميعاً تنسج على منواله وتجري في الشئون التي تعرض لها على احكامه . وهذا اجمل وأتم ما عرفناه عن انظمة الحكم عند الاقدمين لما فيه من مراعاة الاهلية والكفاءة في تولية المناصب الرفيعة في الدولة واعتماد رأي الامة في وضع القوانين والشرائع والرجوع اليها في كل ما يتعلق بها من الامور الخطيرة بحيث تكون سيدة نفسها ويكون السائد فيها خادماً حقيقيًا لمصلحتها مقيداً بمشيئتها ومنفذاً لارادتها

على ان تعدّد الملوك في فينيقية وانقسام ممالك الفينيقيين في مقدمة البواعث على قعودهم عن التوسع في الملك وعجزهم عن رد الغزاة عن بلادهم . ولولا تفتيتهم في اختيار ملوكهم ومواصلة الفتح التجاري السلمي الذي اشتهروا به واستمساكهم بالجد والثبات ومحافظتهم على الصفات التي امتازوا بها اجمالاً لانحط شأنهم عاجلاً وما قامت لهم قائمة بعد انحطاط صيدون وانتقال السيادة منها الى صور في القرن الثالث عشر قبل الميلاد

بعد انقضاء عهد الفتن التي افضت الى سقوط صيدون قبضت صور على ازمة الحكم في فينيقية ولمّت شعث الفينيقيين واعترف ملوك البلاد لصاحبها بالسيادة وصار يلقب بملك الصيدونيين واستعادت فينيقية على يدها مكانتها الاولى وأنشأت كثيراً من المستعمرات خارج سورية . وقد استمر عصر سيادة صور خمسة قرون اي الى ان حاصرها سرغون ملك اشور . وفي هذا العصر استحكمت حلقات الالفة بين الكنعانيين فاتحد اهل صور وعكاء ومن بقي من اهل صيدون وكذلك العرقيون والصاريون والاروادیون وتألّف منهم شعب واحد وعصبة واحدة تحت اسم فينيقيين . واما بيروت وجبيل وسيميرا وغيرها فاحتفظت كل منها باستقلالها الداخلي . وكانت هذه الحكومات ترسل كل سنة وفداً دينيًا الى صور ليشهد الجهاد الذي كان يقام فيها تكرمة للاله ملكرث في هيكله المشهور . ولما صارت السيادة السياسية الى هذه المدينة اتخذ الوفد الديني صفة سياسية واصبح في منزلة المستشار لدى ملك صور في المسائل العمومية المتعلقة بممالك البلاد عموماً كالتجارة والمهاجرة والنظر في ما يحسن عقده او رفعه من المحالفات ونحو ذلك . على ان مملكة ارواد ابت الاعتراف بسيادة صور وتنحت عن الممالك الاخرى فلم تشأ الاشتراك معها الاّ في تبادل الآراء في الامور العمومية والتآزر لدرء المخاطر الداهمة ورد غزوات الفاتحين وجعل موقع طرابلس لاجتماع المجلس مراعاة لارواد وحملاً لها على تعضيد بقية الممالك وكان اجتماع هؤلاء المندوبين هناك مدعاة لتسمية هذه المدينة « تريبولیس » اي المدن الثلاث اشارة الى المدن الفينيقية الكبرى وهي صور وصيدا وارواد

فانها كانت تؤلف ولايات متحدة قاعدة مجلسها طرابلس . وكان تأليف هذا المجلس في ولاية الفرس . وقد بلغت هذه المدن في ذلك العهد اوج مجدها وابعد مراحل رقيها وعمرانها . وكان الفينيقيون وقتئذٍ ينشئون لملوك الفرس الاساطيل الضخمة الا انهم كانوا مع ما بلغوا اليهِ من الرقي في ولايتهم ينزعون الى الاستقلال.

اما جيش الفينيقيين فكان مأجوراً لان الشعب كان منصرفاً الى الاعمال التجارية يأنف العيشة العسكرية . وكان معظمهُ من الاروادين ومن العنصر النبي الفينيقي ومن اهل ليديا في آسيا الصغرى. وكانت الارض ملكاً للملك ينعم بقطع منها على من شاء من مريديه واشياعه. ولم يكن الفلاح الا قيماً عليها يحرثها ويؤدي خمس الزرع الى مولاه . ولم تكن ارض فينيقية واسعة فكان الملوك يعتمدون في تغذية خزائنهم على ما كانوا يفرضون من الضرائب والرسوم على التجارة ولا سيما بعد ان ضربت المكوس الفادحة على واردات بلاد بني اسرائيل

الآثار الفينيقية

لقد تعاقب على فينيقية كثير من الدول الفاتحة حتى انهُ لا تكاد تخلو بقعة فيها من آثار لعدة دول منها ولا ادل على ذلك من الكتابات والرسوم المنقوشة في الصخور القائمة على ضفتي نهر الكلب بقرب بيروت تذكاراً لمرور الفاتحين عليهِ نظير رعمسيس الثاني « سيزوستريس » وسنحاريب وسلمنصر والامبراطور انطونيوس الروماني وسواهم

اما الفينيقيون انفسهم فقد خلفوا كثيراً من الآثار بين كتابات ومسكوكات ومصنوعات معدنية وخزفية وحجرية وبقايا ابنية عظيمة . غير ان ما وجد من آثارهم في فينيقية ذاتها اقل بكثير مما وجد في مستعمراتها وذلك لانصراف القوم في وطنهم الى التجارة والصناعة . ويغلب على الظن انهم اقاموا كثيراً من المباني الضخمة فعبثت الايدي فيها . ولا غرو فالامم الفاتحة التي تداولت البلاد السورية ولا سيما الصليبيون لم تجد خيراً من هذه الابنية الفينيقية لاقامة ابنيتها بانقاضها فضاعت بذلك آثار الفينيقيين واندثر كثير من اخبارهم ومعالم حضارتهم وهذا ما يشاهد في معظم الابنية القديمة في طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكا وخصوصاً في الحصون والاسوار والكنائس القديمة . ولم يبقَ من آثار الفينيقيين الظاهرة الا ابنية عمريتا الواقعة في جنوب جزيرة ارواد وفي جلتها مسكن مؤلف من عدة غرف منقورة في صخر واحد. ومن هذه الآثار ابنية ام العواميد جنوب صور وبقايا اسوار ارواد وما بقي من اسس هيكل سليمان واسواره في القدس والطبقة السفلى من قلعة بعلبك الشهيرة ودير ماري مارون بقرب منبع العاصي

وأما آثار لبنان وهو من صميم فينيقية فعلى ثلاثة انواع : آثار فينيقية محضة نظير آثار

(١ و ٢) تمثال من البرونز وعلى رأسه تاج مزدوج وجد في رأس الشمرا قرب اللاذقية في شمال سورية وفيه أثر من الفن المصري . (٣ و٤) باشق مصفح بالذهب مصنوع على الاسلوب المصري

عمريتا وآثار جامعة بين الهندسة اليونانية والهندسة الرومانية وقد وجد امثلة منها في جبيل وآثار يونانية رومانية بحت نظير اخربة المسرح الذي عثر عليه في البترون وقد وجد امثلة منها في بيروت. على ان الحفريات التي جرت في جبيل في السنوات الاخيرة كشفت الحجاب عن مدافن وهيا كل وابنية تعد في اعتبار علماء الآثار في جملة الآثار الفينيقية

ومن ميزات الفينيقيين في هندسة البناء انهم كانوا يسقفون ابنيتهم بحجارة طويلة فلا يعقدونها عقداً كما كان يفعل الرومان . ولم يستعملوا الاعمدة في وسط الابنية الا نادراً على خلاف المصريين والفرس واليونان . وتمتاز مبانيهم بضخامة الحجارة ومتانة البناء

والآثار الفينيقية المكتوبة كثيرة ولكنها مقتصرة على كتابات منقوشة على الاضرحة والتماثيل وهي تشير اما الى ملك فينيقي او سواه او الى اله من الآلهة . وقد وجدوا صحيفة ليهو قيل جبيل الذي عاش في عصر تلا عهد قورش الفارسي وتقدم عهد الاسكندر . وعثروا على مدفن في صيداء استدلوا من كتابة نقشت عليه انهُ مدفن تبنيت وابنه اشمون عازر ملكي هذه المدينة ووجدوا فيه قطعة من النحاس نقش عليها اسم حيرام ملك صور وقد نقلت الى متحف اللوفر في باريس . ووجد اثر لعبدليم ابن ماتان ملك هذه المدينة ورد فيه ذكر تقدمته لبعل شمائيم وهو عصر متأخر عن عصر الاسكندر . ووجدوا في قبرس كثيراً من الآثار الفينيقية المكتوبة ولكنها لا ترتقي الى ما قبل القرن الرابع قبل الميلاد منها ٣٣ اثراً وجدوها في لارنكا وثلاثة اخرى في جوارها ومعظمها يتعلق بتقادم للآلهة وحساب نفقات بعض الهياكل . ووجدوا في مصر آثاراً فينيقية مكتوبة وكذلك في اثينا وفي جزيرة مالوس ومالطة وصقلية وبارمو وسردينيا وقرطاجنة وفي اماكن اخرى في افريقيا واوربا . وفي سنة ١٨٤٥ وجدوا في مرسيليا اثراً فينيقيًّا نفيساً يرتقي الى القرن الخامس قبل المسيح وينطوي على حساب نفقات هيكل بعل صافون في قرطاجنة وفيه ذكر المحرقات والذبائح التي كان يقدمها الفينيقيون وما يجوز استبدالها به

أما مدافنهم فقد وجدوا منها شيئاً كثيراً في جبيل وبيروت وصيداء وصور وعمريت وعملون وأكثرها مؤلف من عدة اضرحة منقورة في الصخر الاصم على مثال المدافن المصرية تنفتح في جوانبها ألحادٌ توضع فيها الجثث محنطة في نعش . وكثيراً ما ينحدر الى هذه المدافن بسلم او بئر وهي اقدمها عهداً وفي اسفلها عرصة تنفتح في جوانبها الحاد الموتى . وكان لكل اسرة عندهم موضع خاص ولبعظهم نواويس خاصة بهم تدفن معهم فيها انفس كنوزهم وحلاهم . الا ان اكثر هذه المدافن خال من الكتابات ، وكانوا يدفنون في مدافن موتاهم قارورات صغيرة من زجاج او خزف وأصناماً من خزف ويدرجون الجثة بلفائف ويسترون الوجه بغشاء رقيق من الذهب والموسرون يلفون الجثة كلها بمثل هذا الغشاء وهي

مادة درج عليها المصريون ايضاً . وقد استنتج بعض العلماء مما شهدوا في مدافن الفينيقيين انهم كانوا يعتقدون بخلود النفس وبالبعث فيعتبرون الموت رقاداً لا موتاً . وقد رأينا بنفسنا نماذج من مدافنهم وأضرحتهم في جبيل بعد ان رفع المنقبون الحجاب عنها في السنوات الاخيرة

وقد ضاعت انساب الفينيقيين على توالي الاحقاب لأنهم اندمجوا في الشعوب التي جاءت بلادهم فاتحة او لاجئة اندماجاً ضاع معهُ الدم الفينيقي القديم من قرون عديدة ولو ان اللبنانيين اليوم يعدّون خلفاءهم الحقيقيين لاعتبارات ليس هذا مقام التبسط فيها

تاريخ فينيقية

لم يبقَ من تاريخ فينيقية القديم سوى ما ورد على السنة بعض المؤرخين من الاقوال والروايات المستندة الى القصص والحكايات الخرافية وهو ما لا يركن اليهِ ولا يصح الاخذ بهِ كحجة تاريخية يرجع اليها فيهِ . وكل ما يستجلى من هذه الروايات ان فينيقية كانت من زمن عريق في القدم مطمحاً لابصار الفاتحين . ولئن سلمت في بدء امرها من غزواتهم فانها لم تستطع الثبات على مقاومتهم دهراً طويلاً ولا سيما انها كانت ممالك صغيرة مستقلة احداها عن الاخرى لا قوة لها في ذاتها فاجتاحها غير فاتح منهم وتناوبت دولهم السيادة العليا عليها كدولة الاشوريين والبابليين وملوك فارس ومادي ومصر واليونان والرومان والعرب والصليبيون والترك ودول الاتراك وسواهم . وكان الفينيقيون في خلال ذلك يجاهدون في سبيل الاستقلال ويستميتون في الدفاع عن ذمارهم حتى ان ملوك بابل وأشور وفارس قاسوا الاهوال قبل ان يتمكنوا من ضم فينيقية الى ممالكهم وأفضى ذلك الى نشوب فتن وثورات صرفت الفينيقيين عن متاجرهم حقبة من الدهر

وبعد ان دانت فينيقية للاسكندر ظلت المدن الفينيقية على شيء من عمرانها ولكن بعد ان نشأت مدينة الاسكندرية اتخذت تجارة العالم وجهة جديدة فضعفت التجارة الفينيقية وانحط معها شأن الفينيقيين . وقد ازهرت في ولاية السلوقيين خلفاء الاسكندر وهكذا كان شأنها في عهد الرومان . وتنازعها العرب المسلمون والصليبيون ردحاً طويلاً من الزمن . وغزاها تيمور لنك التتري في بدء القرن الخامس عشر فازدادت ضعفاً وانحطاطاً . ثم دخلت في حيازة الدولة العثمانية في اوائل القرن السادس عشر (١٥١٦) وما لبثت ان استقرت امورها في بدء ولاية العثمانيين حتى عادت فسادت احوالها ورجعت القهقرى . وفي الربع الثاني من القرن التاسع عشر (١٨٣٢) دخلت في حكم محمد علي باشا والي مصر وذاقت طعم العدالة بعد ان كانت فقدتهُ دهراً طويلاً . ثم استرجعتها الدولة العثمانية (١٨٤٠) وظلت في حيازتها الى سنة ١٩١٨ حيث استقلت في شؤونها الداخلية بعد ان خضعت لحكم الانتداب على اثر الحرب العظمى (١٩١٤ — ١٩١٨)

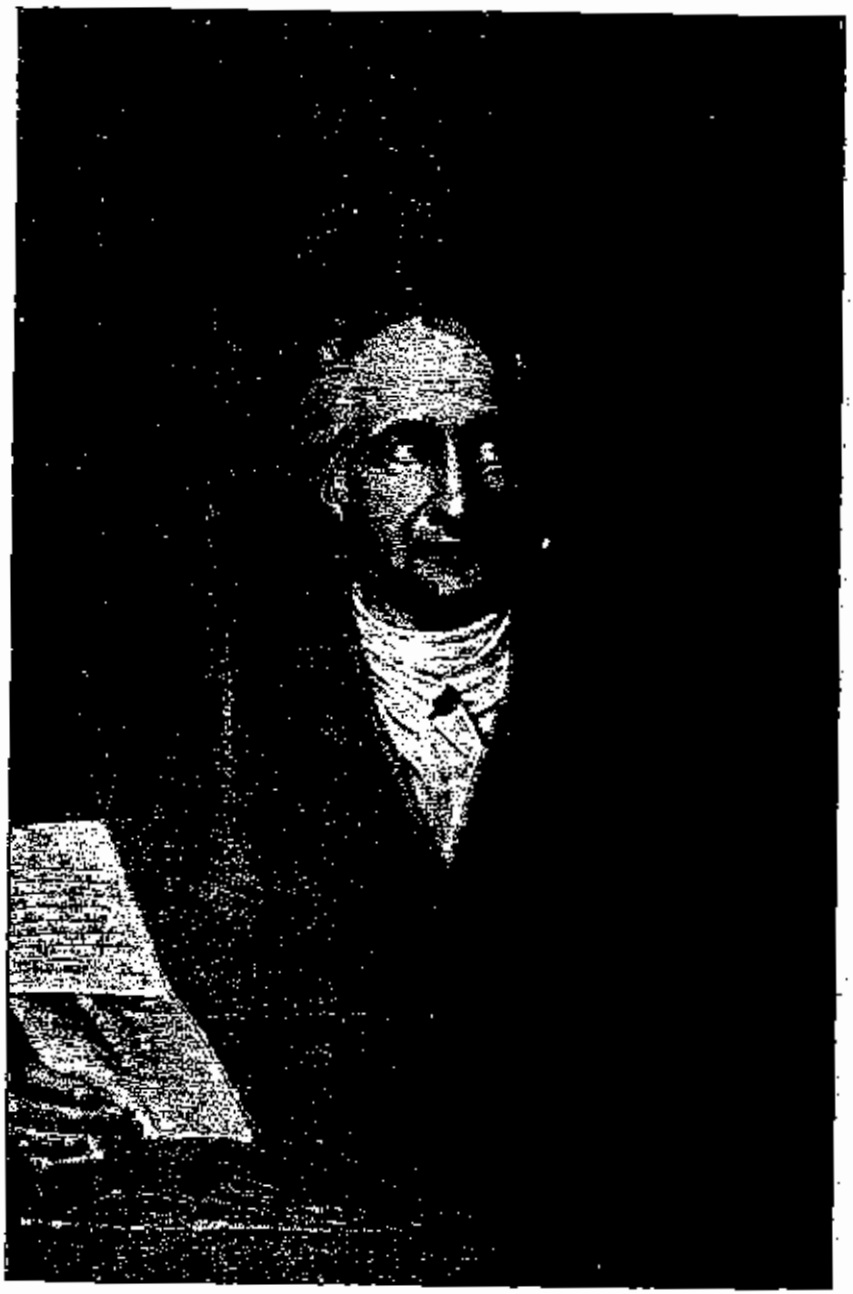

جونه في كهولته

امام صفحة ٤٣٩

مقتطف ابريل ١٩٣٢